

عظة في أحد الأعمى

القديس كليوبا الروماني

لنغسل أعيننا الروحية، أي ذهننا وقلبنا وإرادتنا، من خلال الصلاة والتوبة وعمل الإحسان. عندها سنشفي نفوسنا، مثل الأعمى الذي شفّي في الإنجيل المقدس.

سبق لنا كلنا أن رأينا عمياناً، إمّا منذ ولادتهم وإمّا بسبب حادثٍ أو مرضٍ خطير. وفي كلّ مرّة نرى فيها عمياناً، نشعر بالشفقة عليهم ونبكي أحياناً. فهم لا يستطيعون السير بمفردهم، ولا رؤية السماء أو الشمس أو جمال الأزهار. ولا يمكنهم النظر إلى الأيقونات أو الصليب الذي يكرّمونه، ولا رؤية وجوه أمهاتهم أو أولادهم أو سائر الناس. كما أنهم لا يستطيعون قراءة الكتب المقدسة، وبالكاد يمكنهم العمل، لذلك يشعرون بأنهم عبءٌ على عائلاتهم ومجتمعهم، إذ يعيشون في الغالب على صدقات الآخرين.

إنّ مثل هؤلاء الأشخاص الذين لا يرون بأعينهم الجسدية يستحقّون شفقةً ورحمةً من الكلّ. أمّا الله فيعزيّ الذين لا يبصرون بمنحهم عطايا أخرى: كالحكمة، وعدوبة الكلام، والتواضع، وعطيّة الدُموع، وغالبًا موهبة الترتيل العذب، لأنّ خالق الكلّ، بعنايته الإلهية، يرحم خليقته. لذلك يقول الروح القدس على لسان المرّم: " الرَّبُّ يَفْتَحُ أَعْيُنَ الْعَمِيِّ " (مزمور 145/146: 8).

إنّ عمى الذهن والقلب والإرادة والضمير لأشدّ خطورةً وأجدر بالشفقة من العمى الجسديّ، لأنّ النفس أثنى بكثيرٍ من الجسد. من هنا يقول المخلّص: "ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كلّه وخسر نفسه؟ أو ماذا يعطي الإنسان فداءً عن نفسه؟" (مرقس 8: 36-37). ولأنّ الله خلقَ النفس لتكون خالدة، فإنّ عمى النفس يُعدُّ من أخطر الأمراض التي تُؤوّل إلى هلاك هذه النفس ودينونتها الأبديّة. لذلك فإنّ شفاء هذا المرض أصعب بكثيرٍ من شفاء العمى الجسديّ وأكثر أهميّةً منه.

ماذا نعني بعمى النفس أو العمى الروحيّ؟ نعني به ظلمة النفس واستعبادها بمختلف خطايا الجسد والنفس، مثل: تكبّر الذهن، وقساوة القلب، وضعف الإرادة والضمير، وقلة الإيمان، والشكّ، واليأس، والكبرياء،

والانتحار، وقتل النفس والجسد، والإجهاض، والكراهية والغضب بين الناس، والطلاق، والزنا، والكذب، وحب المال، والبخل، والشراهة، والشكر، والكسل، وغيرها. فالخطايا كلها هي أمراضٌ روحيّةٌ تؤدي بالنفس إلى العمى وتبثد المشاعر، وتُسبب للجسد أمراضًا خطيرةً ومستعصية. وإذا لم نتخلّ عن الخطايا التي تستعبدنا من خلال التوبة والاعتراف والتجدد الروحي، فإن عمى النفس، كأى مرضٍ، سيؤدّي إلى موتها ودينونتها بعذابات الجحيم.

ذلك المسيحي الذي يُعير إيمانه بالله، ويترك الكنيسة الأرثوذكسيّة التي أسّسها المسيح والرسل القديسون، وينضمّ إلى طوائف أخرى، أليس أعمى روحيًا؟ والمسيحي الذي لم يأت إلى الكنيسة منذ سنوات، ولا يصلي، ولا يقرأ الكتب المقدّسة، ويؤجل التوبة والاعتراف إلى ساعة موته، أليس مريضًا وأعمى روحيًا؟ وأولئك الذين يُسمّون أنفسهم مسيحيين بالاسم فقط، ويُبددون وقتهم ومالهم وصحتهم على همومٍ زائلةٍ وخطايا مميتة، أليسوا تُعساء وعميانًا روحيًا؟ وأولئك الذين لم يقرأوا ولو مرّةً واحدةً الكتاب المقدّس، ولا سيّما العهد الجديد، وسائر الكتب ذات التعاليم المسيحيّة التي تُنير العقل والنفس وترشدُهما نحو المسيح، أليسوا تُعساء ويفتقرون إلى نور المعرفة والفرح الروحي؟ والمسيحيون الذين يقضون حياتهم في الشكر والزنا، وفي الخُصومات والطلاق والدّينونة والكراهية، أليسوا ضُعفاء في الإيمان، ومخدوعين من الشيطان، وعميانًا ومرضى روحيًا، وسائرين في طريق الهلاك، وغير قادرين على أن يتركوا خطاياهم ويتوبوا ويُخلّصوا نفوسهم؟

أى عمىٍ وأى نقصٍ في الإيمان يتملّك هؤلاء الأزواج الذين لا يتخذون من الزواج إلا سبيلاً لإرضاء لذاتهم وخطاياهم، ولا يرغبون في إنجاب الأطفال؟ وإن رزقوا بهم، يُعثرونهم بأسلوب حياتهم، ويحرمونهم من التربية المسيحيّة القويمة. نحن نرى كيف تتمزق وحدة عائلاتنا -هذه الخلايا الحيّة للحياة والمجتمع- بسبب كثرة الخلافات وتزايد حالات الطلاق والإجهاض، والإسراف في الشكر وغياب التربية الدينيّة. إنّ هذه الخطايا كافّة تستعبدنا بسبب عمانا الروحي، ولا مبالتنا، وضعف إيماننا بالله، وجهلنا الإنجيل، وقلة مشاركتنا في الحياة الكنسيّة، وتأجيلنا الاعتراف، وافتقارنا إلى أبٍ روحيٍّ صالح، ونسياننا الموت والدّينونة اللذين ينتظراننا.

هذا ما هو عليه العمى الروحي، وهذا هو مقدار استعباده لنا كلنا: يستعبد بعضنا بخطايا جسديّة، وبعضنا الآخر بخطايا روحيّة، وجميعنا بقساوة القلب، وقلة الصلوة، ونسيان الله، وكثرة الهموم الأرضيّة. لا أحد صالحٍ أو بارٍّ، طاهرٌ أو مستحقٌّ الحياة الآتية أمام المخلّص الذي سيديننا.

ماذا ينبغي لنا أن نفعل إذا؟ كيف يمكننا أن نشفي ذواتنا من قساوة القلب الرهيبة هذه، ومن عبودية الأهواء، ومن عمى نفوسنا؟ علينا أن نترك الخطايا التي تستعبدنا وأن نرجع إلى المسيح، إلى الكنيسة، إلى الصلاة، إلى التواضع والتوبة. أي أن نفعل كما فعل الأعمى في إنجيل اليوم، عندما سأله المسيح: "أتؤمن بابن الله؟"، فأجاب من كل قلبه: "أؤمن يا رب!" وسجد له (يوحنا 9: 38).

يسألنا المسيح نحن أيضًا اليوم: "أيها المسيحيون، هل تؤمنون بالمسيح مخلص العالم؟ هل تحفظون وصاياه؟ هل تؤمنون بالإنجيل المقدس لكي تكون لكم حياة أبدية؟ هل تؤمنون بأن الله خلق العالم، وبأنه رحيم تجاهه، وبأنه وحده القادر على أن يخلصه من الهلاك والموت؟". إن كل واحد منا سيخلص أو يُدان بحسب الجواب الذي سيُعطيه.

وإذا كنّا نؤمن بابن الله بكل ما أوتينا من قوة، فلننتم وصاياه إذا ولنفعل ما فعله الأعمى في الإنجيل، بعد أن مسح المسيح عينيه بالطين ثم أرسله ليغتسل في بركة سلوام، فشفى حالًا وصار يُبصر. إن الطين على عيني النفس هو دنس خطايانا التي نتطهر منها بغسل الدموع والاعتراف. فلنصغ إلى المسيح ولنعمل بما يوصينا. لنغسل أعيننا الروحية، أي ذهننا وقلبنا وإرادتنا، من خلال الصلاة والتوبة وعمل الإحسان. عندها سنشفي نفوسنا مثل الأعمى الذي شفى في الإنجيل المقدس.

إن الحياة الأرضية قصيرة وخداعة ومملوءة بالآلام؛ أما الحياة السماوية فمغبوطة تفيض بالفرح الأبدي. فلنترك خطايانا التي تُعمينا وتُميئ نفوسنا، ولنعد إلى المسيح. فلا يكفي أن نرسم إشارة الصليب ونقول: «يا رب، يا رب!»، بل المطلوب منا هو تجديد روحي عميق لحياتنا. إننا مدعوون إلى طرح طين الأهواء عن أعين نفوسنا، والاعتسال في بركة سلوام أي في غسل الاعتراف، ثم إلى إطاعة المسيح والكنيسة التي أسسها على الأرض. فبالتواضع، والصلاة، والمصالحة مع الآخرين، والمواظبة على الذهاب إلى الكنيسة، وعمل الإحسان بحسب قدراتنا، وتربية أطفالنا على الإيمان المستقيم ومحبة الله، نصير مسيحيين صالحين، وأبناء حقيقيين للكنيسة الأرثوذكسية، وورثة لملكوت السموات. آمين.

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

Source: St. Cleopa of Sihastria (n.d.). "Homily on the Sunday of the Blind Man", in *Sayings of the Romanian Elders*. Retrieved online from Substack.